

رحلة شاعر عراقي في الخليج العربي في القرن التاسع عشر

الأستاذ الدكتور
محمد حسن علي مجيد
الكلية الإسلامية الجامعة - النجف الأشرف

رحلة شاعر عراقي في الخليج العربي في القرن التاسع عشر

الأستاذ الدكتور

محمد حسن علي مجيد

الكلية الإسلامية الجامعة - النجف الأشرف

المقدمة :-

تعد غريزة حب الاستطلاع والسفر والترحل وطلب المعرفة وارتياح المجهول واكتشاف الغريب من أهم غرائز الإنسان لذلك شغف بحب السفر والتجوال ورغب في الاطلاع منذ أقدم العصور. وفي التاريخ أمثلة كثيرة على رحلات متواصلة قامت بها الأقوام عبر الأزمنة والعصور . فقد قام المصريون القدماء برحلات طويلة في الآفاق ، ثم الفينيقيون ثم الإغريق فالرومان^(١) ثم رحلات العرب قبل الاسلام الى أنحاء الجزيرة العربية وخارجها ، الى اليمن والحبشة والشام والعراق . وحسبنا أن نشير الى رحلتي (الشتاء والصيف) اللتين ورد ذكرهما في القرآن الكريم ، مما كان يقوم به في كل عام التجار والرحالة العرب الى جنوب الجزيرة العربية وشمالها ، ثم جاءت رحلات العرب المسلمين الذين جابوا البلدان في مشارق الأرض ومغاربها ، وقطعوا الفياقي والقفار ، وركبوا الأنهار والبحار ، منذ البعثة النبوية المباركة حتى القرن العاشر الهجري^(٢) حين قلت حركتهم ، ودخل السفر والترحال في مرحلة هدوء نسبي ، وذلك بسبب الاجتياح الأجنبي للبلاد ، وخطورة السفر وتخريب الطرق وسوء المسالك وكثرة قطاع الطرق وفقدان الأمن وفساد الإدارة . وقلة وسائل النقل ورداءة الأحوال الاقتصادية . وبقيت هكذا حتى القرن الثالث عشر الهجري (التاسع ميلادي) إذ بدأت حركة الناس تنشط من جديد . وبدأ الرحالة والسواح يستأنفون رحلاتهم في هذا القرن على الرغم من بقاء

السفر يعاني من صعوبة المواصلات ، وقلة وسائل النقل ورداءتها ، وسوء المسالك وفقدان الأمن فإن رحلات كثيرة قام بها رحالة عراقيون وسجلتها كتب التاريخ والأدب ، الى خارج العراق ، ومن خارجه الى داخل ، مما قاموا بها لغرض السياحة والاطلاع أو الترويج عن النفوس ، أو لاغراض شخصية أو تجارية أو سياسية ، وقطعوا خلالها الطرق وشاهدوا المدن وركبوا الدواب والسفن ، هذا فضلا عن الرحلات التي كان يقوم بها الحجاج العراقيون الى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج ، وسجلوها في مدوناتهم شعراً أو نثراً باسم (الرحلات المكية أو الحجازية) مما حفلت به الكثير من كتب التاريخ والأدب والمجموعات الشعرية المخطوطة والمطبوعة و كان من أشهرها مثلاً رحلة العلامة أبي الشاء الآلوسي (١٨٠٢-١٨٥٤م) الى الأستانة سنة (١٨٥١ - ١٨٥٣م) التي سجلها نثراً مطعماً بالشعر في سفر ضخم سماه (غرائب الاغتراب) ، ورحلة حبيب بن طالب البغدادي (ت سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م) ، من جنوب لبنان إلى بغداد سنة (١٢٦٣هـ/١٨٤٧م) التي سجلها الشعراء ، ورحلة الشاعر عبد المحسن الكاظمي (١٨٧٠ - ١٩٣٥ م) من بغداد الى مصر سنة (١٨٩٧-١٨٩٩ م) . وفيها أيضاً الرحلة الممتعة التي قام بها الشاعر العراقي عبد الجليل البصري (١٧٧٥-١٨٥٣ م) مع ليف من أصحابه من البصرة في شط العرب ثم في الخليج العربي ، متجهين نحو الجنوب حتى أقاصي البحرين ، ثم العودة معاً الى البصرة ، وسماها (نزهة الجليس) ، استغرقت اسبوعين كاملين ابتدأت من منتصف شهر رجب من عام ١٢٤١ هـ / ١٨٢٥ م ، حتى آخر يوم منه^(٣) وهي قصيدة رجز طويلة بلغت (مئة وثمانية وثمانين) بيتاً ، وصف فيها الشاعر بتفصيل واسهاب ممتعين مراحل الرحلة من ساعة قيامها من البصرة حتى وصوله الى أقصى مناطق البحرين ثم العودة الى البصرة . إن أهمية هذه الرحلة تكمن أولاً في قيمتها العلمية إذ تزود أهل

التاريخ والجغرافية والآثار والأدب وغيرهم بمعلومات قيمة عن وصف المناطق التي رحلوا فيها ، والمدن التي زاروها والآثار التي شاهدوها ، والطرق التي سلكوها ، وأهوال البحر ، وطبيعته وتقلباته التي عانوا منها ، وأزياء الناس وأخبارهم وتقاليدهم التي رأوها ، ومظاهر الطبيعة وعواصف الرياح وتقلبات الجو ، وغرائب الحوادث والمحن والمزالق التي تعرضوا لها ، وغير ذلك مما يلذ السمع ويمتع البصر ، كما ثبتت المواقع ، وشخص الأماكن وعين الاتجاهات ووصف الموانئ ، وذكر العشائر القاطنة على ضفتي شط العرب والخليج العربي في تلك الحقبة من الزمن ، وغيرها من الحوادث والمناظر والمفارقات ، ثم في قيمتها الفنية ثانياً ، إذ تزود القراء بمعلومات قيمة وكثيرة وممتعة وطريفة مما تؤلف رافداً من روافد الفن والمتعة الأدبية ، ثم في قيمتها التاريخية إذ تسجل أخبار الحكام والزعماء المحليين والرجال المتنافسين للسيطرة على المناطق ثم تنقل بعض الحوادث التي وقعت ، والمعارك التي نشبت أو المناوشات التي دارت بينهم نقلاً مباشراً من أفواه أهالي تلك الأصقاع أو من منقولاتهم ، مما يعد وثيقة تاريخية مهمة عن هذه المناطق يمكن أن يرجع إليها المؤرخون عند كتابة تاريخها في هذه المرحلة من الزمن ، فحفظ السيد عبد الجليل بذلك الكثير من المعلومات المهمة التي لولاه لضاعت في أعماق المجهول.

وقبل أن نسير مع الرحلة وحوادثها الطريفة ، نرى أن نتعرف بشكل موجز على الشاعر السيد عبد الجليل البصري ، الذي كتب هذه الرحلة وسجلها شعراً طريفاً ممتعاً .

ولد الشاعر العراقي السيد عبد الجليل البصري سنة (١١٩٠ هـ / ١٧٧٥ م) من أسرة عراقية بصرية موسرة ، كانت تمتلك دوراً وبساتين في البصرة^(٤) نشأ وعاش ردهاً طويلاً من حياته في بلاده (البصرة) ، وتوفي فيها سنة

(١٢٧٠هـ/١٨٥٣م). وكانت نشأة الشاعر في مرحلة غير مستقرة من حياة العراق ومنطقة الخليج العربي وما جاورها من بلاد العرب ، بسبب طول مدة السيطرة الأجنبية العثمانية على البلاد العربية ، وضعف سلطة الدولة ، واضطراب نظام الإدارة ، وطمع الحكام ، وتسلب المماليك على العراق منذ منتصف القرن الثامن عشر ، وتفشي الرشوة ، وشدة العنف والابتزاز ، وشعور الناس بثقل الحياة والحكم ، مما جعل منطقة الخليج بشكل خاص والبلاد العربية الأخرى التابعة للدولة العثمانية ، تعيش في هياج واضطراب مستمرين . ففي هذه المرحلة من حياة الدولة العثمانية نشطت الحركة الوهابية في نجد والحجاز وأطراف البحرين وبعض أنحاء الخليج العربي ، وشقت عصا الطاعة على الدولة ، فأدى ذلك إلى الاقتتال المستمر ، سواء بين المناطق والعشائر من جهة ، أو بين أنصار الحركة الوهابية والدولة العثمانية من جهة أخرى . وبسبب كثرة أعمال السيد عبد الجليل ومصالحه في المناطق الممتدة من البصرة حتى البحرين ، وبحكم عمله ومطالب معيشتة واملاكه في معظم هذه البلاد ، فقد كان دائم التنقل بينها ، سواء في البصرة التي كانت تحت السيطرة العثمانية أو في مناطق الخليج أو الجزيرة العربية التي انتشرت فيها الحركة الوهابية ، لذلك اضطّر السيد عبد الجليل - بحكم مصالحه وأعماله - إلى أن يتصل برجال الحكم من كل الأطراف ويمدحهم ، لتأمين مصالحه لديهم . فهو مع السعوديين حين يكون في نجد وعلى سواحل الخليج وبين الإحساء والبحرين والكويت ، ومع الدولة العثمانية وولاتها حين يكون في موطنه وموطن آبائه في (البصرة) ، وهو مع أشراف مكة حين يحج إلى البيت الحرام ، ومعلوم أن أشراف مكة والدولة العثمانية خصوم للدعوة الوهابية ، لذلك خلا شعره وثره السياسي من صدق اللهجة وحرارة العاطفة واستقامة المبدأ ، لأنه لم يكن ينظم في مدح الوهابيين أو السعوديين أو العثمانيين بدافع ديني أو

اعتقاد حقيقي أو ولاء سياسي ، ولم تكن مواقفه في تأييد الطرفين ولا سيما الوهابيون – الذين أكثر من مدحهم – بوحى من عقيدة ، بل بدافع الخوف أو الطمع لأنه كان حضرياً لا يقوى على مواجهة البدو ولا يطيق خشونتهم^(٥) لقد تجول السيد عبد الجليل في كل بقعة من بقاع الخليج العربي وعاش فيها وتقل بين أرجائها واتصل برجال الحكم فيها وبأعلام الفكر والعلم والأدب من أهلها ، لذلك جاء شعره في أغراضه المختلفة مرآة لعصره وأهل العصر .

أما اتصالاته الأخرى فقد كان على اتصال دائم بعلماء عصره وأدبائه ، لذلك عكس شعره من جانب آخر نوع تلك العلاقات ، وصورة لها من اتصاله بالعلماء والأدباء ورجال السياسة ، فهو إذن يمثل لونا من ألوان الأدب العراقي في تلك الحقبة من حياة العراق والبلاد العربية .

لقد كان أكثر ما يشغل بال السيد عبد الجليل في حياته ما كان يسميه : المظالم المضروبة من الدولة العثمانية على نخيل وأملاك له موروثه في البصرة عن جده (السيد جليل) ومما كانت تلزمه الدولة العثمانية في وقتها من أداء ضرائب عالية عليها في كل سنة ، مما كان لا يطيق دفعه ، أولاً يود دفعه مما يراه (مظالم) لا حق لهم فيها ، لأنها ليست من أملاك الدولة وبساتينها أو مستأجراتها ، إنما هي أملاك (صرف) خالصة له ، بأوراق وسندات رسمية لا مجال للشك فيها ، أو ابتزاز واردة لها ، أو فرض الرسوم أو الضرائب الثقيلة عليها ، وهذا ما كونها جاساً دائماً له ، فكان مرة يمتنع عن الدفع ، وأخرى يطلب التسوية والتقسيم ، والثالثة يطلب التخفيف ، ورابعة يرفع برسائله الى الحكام يوضح لهم المظالم التي يوقعها جباة الضرائب عليه ، وعلى أملاكه مما ليس لهم حق فيها . ففي سنة ١٢٤٣هـ رفع الى الوالي داود باشا والي بغداد رسالة في هذا الموضوع شرح فيها مظالمه ومطالبه ، وقد اعتنى بديبايتها كثيراً ، لأنه يعرف تضلع داود باشا بالشعر وعنايته بأساليب

التعبير، سماها (ثناء سمط الدرر)^(٦) وخامسة يرفع القصائد الى الحكام والمسؤولين يمدحهم فيها ، ويصور حاله وكثرة عياله وضيق ذات يده ، ويطلب منهم مساعدته واعفائه مما يفرض عليه رجال الضرائب وكثيراً ما كان المسؤولون يلبون طلبه ويأمرّون بتخفيف الضرائب عنه أو إلغائها ، لكن موظفي الضرائب كانوا كثيراً ما يعودون اليه بعد مدة لمطالبته واستيفاء الضرائب منه . ولما تولى السلطان محمود الثاني السلطة سنة ١٨٠٨م كتب الشاعر له رسالة مطولة ، هنأه فيها وشرح مظالمه وطلب اعانته ، هذا السلطان هو الذي أمر الوالي داود باشا بالعمل بالفرمان السلطاني السابق الصادر باسم جد الشاعر (السيد جليل) (الذي يتضمن رفع جميع المظالم عن أملاكه وأملاك أولاده وأولاد أولاده ولا يؤخذ عليها خراج إلا الخراج الشرعي)^(٧) وعليه تقرر إعفاء أراضي الشاعر ونخيله من الضرائب ، فكف عنه ولاية الأمور في البصرة ، وتركوا مطالبته ، بل وأعادوا إليه ما أخذ من الرسوم الأميرية الزائدة التي سبق أن استوفوها منه^(٨) وكان الشاعر قد رفع إلى الوالي داود باشا في السنة نفسها مع رسالة السلطان رسالة فيها نسخة من فرمان السلطاني المذكور ، فأمر الوالي بناءً على أمر السلطان بإلغاء المظالم عن تلك الأملاك فأرسل على أثرها للوالي قصيدة أخرى مدحه فيها وشكره عن حسن صنيعه وهكذا كان يعود الى البصرة كلما أن أوان الزرع أو حل موسم الحصاد أو حل عليه خراج أو سمع بمسؤول يزور البصرة أو تتاح له الفرصة لمخاطبة الحكام وإلا فهو متنقل بين البصرة ومناطق الخليج ، ولاسيما منطقة (الزبارة) في الشمال الغربي من شبه جزيرة قطر التي كان له فيها بيت آخر وزوجة ثانية^(٩) ويبدو أن هذه الثانية كانت هي الأثيرة لديه لأنه كان يقضي الكثير من أيام السنة فيها ، فضلاً عن مصالحه وأعماله في منطقة الخليج والبحرين ، ولكن لا تكاد تمر سنة من غير أن يحضر إلى البصرة ولاسيما أيام

موارد الزرع وقطف الثمر وقص النخيل ، واستلام المحاصيل بعد أن يقضي فيها مدة من الزمن ، يرى فيها أهله ، ويتفقد أملاكه ، ويتصل بأهل البلاد وعلمائها وشعرائها ووجوهها وحكامها . منها مثلاً زيارته الى البصرة سنة ١٢١٧هـ وبقي في قرابة عام كامل ، وفي سنة ١٢٣٣هـ عندما زار البصرة أرسل رسالة مطولة إلى قاضي البصرة السيد عبد القادر أفندي بن صبغة الله الحيدري عندما لم يتسن له الاجتماع معه لكثرة مشغوليته فأرسل له رسالة اعتذار ، كما أرسل سنة ١٢٣٤هـ رسالة عتاب الى الشيخ عثمان بن سند الوائلي البصري أحد وجهاء البصرة وعلمائها ومؤرخيها^(١١) لأن الأخير لم يقيم بزيارته عندما كان في البصرة وفي سنة ١٢٥٣هـ اجتمع بوالي بغداد علي رضا باشا عندما كان الوالي في البصرة بعد فتحه المحمرة ، فهنأه الشاعر بهذه المناسبة بقصيدة ، وأجاب الوالي بالمقابل جميع مطالب الشاعر من إزالة ما على بعض أملاكه من الخراج^(١٢) وفي مناسبة اتصال الشاعر بالوالي في هذه المناسبة كان مع الوالي علي رضا وفي حاشيته الشاعر العراقي الكبير عبد الباقي العمري الموصللي ، الذي كان يعمل معاوناً للوالي (كتخدا) فاجتمع معه الشاعر عبد الجليل ، وبذلك اجتمع أديب الشمال وأديب الجنوب وانهقدت معه صداقة ومودة وتبادلا بعد ذلك الرسائل والاشعار .

وصف الرحلة :

قلنا : من الرحلات (الشعرية) الممتعة التي سجلها الأدب العراقي في القرن التاسع عشر ، رحلة بحرية قام بها الشاعر عبد الجليل البصري في الخليج العربي وجزر البحرين ، مع لفيف من أصدقائه ، ثم العودة معاً الى البصرة ، سماها (نزهة الجليس) ، وقد استغرقت أسبوعين كاملين ابتداءً من منتصف رجب عام ١٢٤١هـ / ١٨٢٥م حتى آخر يوم منه^(١٣) وهي طويلة بلغت ١٨٨ بيتاً . ففي بداية الرحلة حدد الحركة وزمنها ، وذكر واسطة النقل التي اعدوها

للابحار ، والأسلحة التي حملوها للدفاع عن أنفسهم عند الحاجة ، ثم مجموعة من الكتب المتنوعة في الفقه والتفسير والحديث والأدب التي اصطحبوها معهم مما يشير إلى أن الجماعة السائحة كانت تعرف ان الرحلة قد تطول ، فلا بد إذن من استغلال الوقت والإفادة من الزمن فحملوا معهم الأسفار للدراسة الإفادة وهذا يدل أيضاً على أنهم كانوا من أولى العلم والفضل ، والأدب والمعرفة .

بدأ الشاعر قصيدة الرحلة بالاستغفار والدعاء والتعريف باسمه ونسبه - على طريقة العصر - في خمسة أبيات - أولها قوله :

((قال الفقير المذنب الجاني الاقل عبد الجليل ذو الخطايا والنزل))

وفي الأبيات السبعة التي بعدها تهيأ الشاعر للرحلة ووضح مباهج السفر وفوائده ، ولذاته ، وما فيه من متعة وأنس واطلاع ، لاسيما في حالة اجتماع الأصحاب والأحباب في رحلة واحدة .

وفي البيت الثالث عشر وما بعده يبدأ الشاعر بوصف حركة الرحلة وحدد وقتها وذكر الفصل الذي حدث فيه ، وأرخ لها :

صبح الخميس النصف من شهر رجب في خامس الحوت وذا فصل يحب
في سنة في ضبطها أرخنا (عني للنزهة قد خرجنا)

١٢٤٢هـ

ثم يستمر في وصف رفاق السفر وما فيهم من لطف النفس وحسن المعشر وانعدام الثقل فيهم ، في تسعة أبيات ، أولها قوله :

في رفقة غر الوجوه كمل ما فيهم إلا فصيح المقول

قوم كرام من كرام تنمى ممن زكا خالا وطاب عما

بعدها يتحول الى وصف الخدم الذين أخذوهم معهم ، وما كانوا عليه من
صدق الخدمة وخفة الروح وسهولة الطبع وامثال للأمر ، قال في أولها
عنهم :

غلماننا كلٌ خفيفُ الروح لا ينفك في بشر وطبع سهلا

ثم بعدها يصف الأسلحة التي احتاطوا بها للطوارئ ، فكانت متنوعة من
سيوف وبنادق :

سلاحنا الأسياف والبنادق وبالرماية الجميع حاذق

ثم يذكر الكتب وأسفار المعرفة التي حملوها معهم وهي متنوعة من فقه
وتفسير ولغة وأدب ، قال في أولها :

وقد صحبنا معنا الأسفار نقطف من أسفارها أزهارا

أما مواكب الرحلة فقد تألف من قارين مصنوعين بدقة ومحفوفين بالعتاية :

قد امتطينا قارين حفاً بحسن تسير الاله لطفنا

قد أحكمنا صناعةً وعدةً أسرع من طرف تطيل مدد

وكانت الريح ساعة الحركة مواتية لطيفة ، تحرك القوارب وتدفعها بلطف
وهدوء على سطح الماء :

لما ركبنا كانت الريح لهما تحرك مطابق للمنتهى

سرنا على اسم الله في مجراها كذاك باسمه على مرساها

وحين صارت المراكب تتهاذى في شط العرب كأنها العرائس في موكب
زفاف لاحت مناظر النخيل الباسقة وينابيع المياه المتدفقة ، وأشجار الكروم
الوارفة ، وأنواع الأثمار المتدلية الشهية القريبة المجتنى لكثرتها وانخفاضها
ونضجها . قال في أولها :

ترى بها النخيل باسقات من كل نوع لذ للجناء
فيها الينابيع مياه قد جرت في برها وبحرها تفضرت

حتى يصل الى مناطق البحرين وجزرها ، فيتحدث عنها منطقة منطقة ،
ويصفها جزيرة جزيرة ، وصفاً دقيقاً مفصلاً يدل على شدة تأثره بمناظرها
واندماجه بمشاهدتها ، وشعوره بالسعادة والارتياح فيها وانسراح صدره
بألوانها وأنواعها ، ودخوله حالة من التأمل والدهشة مما يرى فوصفها من
داخل نفسه ، مع دقة في تثبيت المواقع ، ومقدرة في تحديد الاتجاهات وتوضيح
لسير الرياح ، وصعوبات البحار ، ثم وصف كل ما وقعت عليه عيناه من
أناس وأفراد وعشائر، ورجال ونساء ، وحوادث وطرائف ، ومادعوا له من
طعام وما قدم لهم من شراب ، وما أحيطوا به من كرم وضيافة من سكان
الخليج وأهل المضارب ، ثم لا يفوته أن يصف كل ما شاهد من خضرة وماء ،
وأرض وسماء ، وأمواج وعواصف وهم يسرون بقواربهم التي تجري فوق
مياه البحر وما تعرضوا له من محن ومزالق وما شاهدوه على جانبي الشط
والخليج من مبانٍ وقلاع ، كل ذلك في وصف نسخي ممتع فيه الكثير من دقة
النقل وطرافة التصوير ومطابقة المشاهدة مع التشويق بالحديث وإطالة في
السرد وحبكة في الأسلوب وصدق في التجربة ووضوح في اللغة والحسن في
المعاني مما يمكن أن يعد وثيقة تاريخية ونادرة علمية وتحفة أدبية ، لولا قلة في
الخيال واسهاب في السرد .

فبعد دخول الشاعر ورفاقه في رحلتهم هذه مياه البحرين يبدأ بوصف أهلها
وحكامها من (ال خليفة) وما فيهم من نخوة وشهامة ، وكرم وعناية بالضيف
ورعاية للنزير ويصف كرم أحد وجهائها الشيخ (بخاخ) : قال في قسم من
ذلك :

فمذ نزلناها ضحى النهار	في دار (بخاخ) بلا استقرار
أم الوفود نحووه أفواجا	رفاده قد قطعوا الضجيجا
عاش به الجار على الوقار	في منعة وعزّة الجوار
ومعشر شم تعاقدوا على	حسن السجايا واكتساب للعلا
(ال خليفة) عظام الفخر	من كل قرم ماجد غضنفر

بعدها يصف جزر البحرين وأجواءها حتى يصل الى جزيرة (جو)
اللطيفة : فيقول في قسم منها :

وقد غنمنا نزهة (الجزيرة)	سرنا الى (جو) بحسن سيره
وقد وردنا منهلا مستصفى	فيه مريئاً سكرياً أصفى
ثم ارتحلنا الصبح للجنوب	فزاد فينا الريح بالهبوب

وإذ يسير الركب بهم بين تلك الجزر ويتنقل بين الديار ، وما أن وقعت
عيونه على بعض نسائها وما فيهن من حسن وملاحة وفتنة وصباحة حتى
تسببه العيون الساحرة والقُدود الفاتنة واللمى المعسول ، فيصف جمالهن
بانبهار وعجب ، حين يقول في قسم من ذلك :

دار الربّات الحجال الخرد	من كل هيفاء بقدر أُميد...
ذات اللمى المعسول والثغر الشنب	وعقرب الصدغ لمضناها تدب

ويخبرنا الشاعر بعدها ، بأنه مر بعد ذلك بديار كانت عامرة بأهلها ونسائها ولكنها صارت بعد ذلك مسرحاً لمنازعات قبلية ومعارك محلية بين زعمائها والطاكعين فيها ، حتى آلت معالمها إلى الخراب بعد أن اضطر أهلها للهجرة منها ، فأُمسّت خاوية خالية ، لا تأوي إليها غير الضباع والضباب (جمع ضب) والذئاب وحيوانات البر :

فأصبحت اطلالها تسائل أين الدمى وهاتك الخلاخل
قضى عليها الدهر بالخراب حتى غدت مساكن الضباب

ومع وحوش البر التي استوطنت تلك البقاع كان هنالك الصيادون الذين يشاركونها السكن ، ويبدو أنها كانت منطقة ممتازة لصيد حيوانات البر وحيثان البحر ، وحيوانات الغابات ، ويخبرنا الشاعر أنه رأى فيها مجموعة من الصيادين الماهرين في فن الصيد الذين يحذقون أساليبه ، ويتقنون نصب شباكهم ويعرفون أجناس الصيد وأشكاله وأسماءه ومواسم تكاثره وصيد كل نوع من أنواع الأسماك أو حيثان البحر أو حيوانات البر والغابات التي يرصدونها والذين يقدرّون على تحديد حركتها والظفر بها في عمليات الصيد ، وذلك مما يدل على مهارة عالية في الصيد ، وقدرة كبيرة من لدن أبناء الخليج في هذه الصناعة العريقة التي حذقوها وعرفوا بها منذ أقدم الأزمان قال في قسم من ذلك :

سوى فريق حل منها ناحية وكلهم في الصيد هاد داهية
مميز الاجناس والأنواع في سرد أسماها طويل الباع
لا يجهل الحيتان فرداً فرداً يعرف بدءاً صيدها والحداد
يقول هذا النوع فصله دخل يرى غدا وسط الشباك قد حصل

وبعد إقامتهم في تلك الأصقاع أياماً ثلاثة نالوا فيها قسطاً من الراحة ومن أولئك الصيادين تقديراً وحفاوة على طريقة كرم أهل الخليج المعروف، واصل الركب الرحلة الى الجنوب وكانت مسيرة عاصفة :

بتنا ثلاثا فيه بالتوالي لعبرة بها تلك الاطلال

.....

ثم ارحلنا الصبح للجنوب فزاد فينا الريح بالهبوب
حتى تجاوزنا ضحى حد (الجمل) هناك أرسينا بمنزل يمل
في فقره ليس بها أنيس ولا يعافير وليس عيس

.....

ثم قطعنا منتهى البحرين صباحا، وجري الريح بالهويني
حتى نزلنا الراس (للعيش) من غير ازعاج ولا انكماش
وأصبح الضباب كالتساج بردا يمهده على الفجاج

ولا تخفى على القارئ الكريم هذه الصورة الطريفة التي كونها الضباب من تكاثفه وشدته حتى بدا وكأنه برد كبير منسوج ممدود على كل الوهاد والفجاج:

وقد تركنا ذلك المكانا وغيره نمته قاربانا

حتى تجاوزنا الى (دوباس) في ربوة بتنا شمال (الراس)

حينذاك ارتاحت نفوسهم وانشرحت صدورهم لحسن المكان وطيب الهواء وجمال الطبيعة :

يا حسنه من بندر مقارب	جبل الخباء عند جبل القارب
أرض بها تنشرح الصدور	عنها تقول الصبح : لا نسير
في رحلة كأنها الدهناء	طيبة لذ بها الثواء
رياضها تحفها الكثبان	ينبت فيها الشيخ والحوذان
فيها كثيب زان بارتفاع	تنظر منه غالب البقاع
يا طيب ليلتين قد بتناهما	في هاتك الربو ما اناهما

بعدها يستأنفون الرحلة بعد تلك الاستراحة الهائلة ، لولا ما عكر مزاجهم في نهايتها من قبل بعض الصيادين الذين ضايقوهم ، ويسرد قصته معهم فيضطرون لمواصلة السير :

ثم ارتحلنا الصبح للشمال	نطوى قرى الساحل بالتوالي
نقول ذي (الزلاق) قلعة الصدد	تنظرها من سبد ومن لبد
لم يكن الساحل ذا ابتعاد	ملاحنا يجيب نجوى الحادي
وذلك النهار قلنا في (العق	ارية) المقييل لم يطـق
فيها البعوض صائل والساحل	في النتن ذاك مستراح سائل

ولكنهم لم يطيقوا البقاء فيها ، فارتحلوا حتى جزيرة (سلس) التي كانت أكثر راحة وأقل بعوضاً ، وأناسها أهل كرم وضيافة وقدم لهم الخادم (بشير) كل ما لذ وطاب من الطعام فقال :-

مبيتنا كان برمـل (سلس)	بخير موضع لطيف سلس
أنزه سبـب من الصحاري	في قرب جدول زلال جاري

فيها (بشير) جاء بالمطعم كل لذيذ ساغ في الرحلة —وم

وبعد (الزلاق والعقارية وسلس) يعبرون نحو الجزيرة (أم نعيان) التي
رأى فيها العجب من المناظر والينابيع وكهوف وجبال واحواض ومياه
ومغارات ومراع وغيرها مما رآته عينه والتقطته عدسة بصره وسجله قلمه :

و (أم نعيان) نحوها عبرنا	وقد رأينا وضعها اعتبرنا
شاطئها غربا به كهف جبل	بطوله يقطر ماء للنهل
يجري الى البحر وينبت القصب	بينهما ، وذاك من أوفى العجب
في الكهف حوض فيه صب البارد	منه ارتواء من يمر واردا
وفيه كم مغارة مظلة	ليست على الداخل بالمضلة
وبعضها يشبه نحت العمل	وموضع الباب مع القفل جلي
حوض مربع أتى في ذروته	يجرى السيول قاصدا لوجهته
فيها مراع شملت أكنافها	تغني ولما تبلغن أطرافها

ويسهب الشاعر في وصف (أم نعيان) وأهلها وأجوائها ، حتى يتركها
فيتحرك مع الركب حين يتحرك بين جزائر الخليج المبتوثة في البحر ، وما فيها
من مياه وطيور :

ثم تركناها أتى المسيير	بين جزائر بها الطيور
ما بين واقع بها أوطائر	قاطنة بهاتك الجزائر
ترتاع من شدة جري الماء	تضيق مجرى هاتك الأرجاء

وإذ هو يسير بين هاتك الجزائر والمياه والمجاري والطيور وتتقاذف سفنهم أمواج البحار وحيثانه إذا هو يصل الى مَعْلَم مهم من معالم الرحلة ، وهو (قلعة) عالية ، فوجدها كبيرة شامخة حين نزلوا فيها بعد ذلك العناء ، إنها قلعة شاهقة ، ضخمة البناء ، بديعة الطراز ، مهيبة المنظر ، فخمة الشكل ، عالية الأطراف ، فيها أشجار وارفة ونخيل عالية ، وثمار دانية ، وفاكهة متدلية ، وأزهارها متنوعة ، ومياه ساقطة ، وجداول متسلسلة ، وسواقٍ جارية ، كما دل منظرها العظيم ، وطريقة بنائها على قدمها وانها من شدة ارتفاعها تطاول السماء ، وان بناء أسوارها بذلك العلو الشاهق إحاطتها بخندق عريض المساحة عميق الانحدار يوحى أو يدل على أن هذه القلعة بنيت لأغراض دفاعية ، وشيدت تحسباً للطوارئ وحماية أهلها ومنطقتها من هج الأعداء ومباغتتهم لها ، كما أشار الشاعر إلى ما في القلعة من قصور ومن (عجائب المباني) وكثرتها ، مما يدل على (علو شأن الباني) كل هذا أثار عجبه ، وملك عليه دهشته ، وانبهر به ، فوصفها وصفاً ممتعاً طريفاً مسهباً دل على اندماج الشاعر بالمنظر وتأمله له ، ويبدو أن (القلعة) هذه كانت معروفة له ، ولأهل تلك الديار ولأبناء مدينته البصرة ، فلم يسمّها ، ولم يذكر موقعها بضبط ، لذلك سماها (القلعة) بصيغة التعريف من غير نسبة الى مكان . ومن أبياته التي وصفها بها ، البيت الآتي :

حتى نزلنا في فناء (القلعة) والنخل حولها أبان طلعه

وهنا يتضح (الفصل) الذي كانوا مسافرين فيه ، وهو أبان ظهور (طلع النخيل) أي أوائل الصيف :

أشجارها تنوعت أزهارها	غنى على أفنانها هزارها
كأنما ألاترج في الأوراق شب	في خيمة خضرا قناديل ذهب

والماء جار قد صفت جدائله	واستعذبت لوارد نواهلـه
منظر هذي القلعة العظيمة	تعرف منه أنها قديمة
أركانها محكمة البناء	بطرفها تشير للسماء
صخورها منحوتة مربعة	عظيمة السمك بطول وسعة
فسيحة بديعة التفصيل	يقصر عنها الوصف بالتطويل
حاط بها سوران ثم الخندق	يعجب راء عرضه والعمق
قصورها ناءت عن التقصير	وقد زهت بزخرف التعمير
ترى بها عجائب المباني	دلت على علو شأن الباني

ويستمر الشاعر في وصف محتويات القلعة وقصورها ومبانيها وأشجارها مما يعبر عن شدة اندهاشه بروعتها وفخامة بنائها ..

ويبدو أن (القلعة) هذه كانت المحطة الأخيرة في رحلة الذهاب وانها بلغت في الوصول إليها نهايتها وانها حققت غايتها ، حين بلغت أقاصي البحرين ، حينئذ تبدأ (رحلة العودة) ووصفها ، ولكن مع بعض الاختصار لأن الكثير من معالم الرحلة والأرض والمشاهد كان قد ذكرها في رحلة الذهاب فلم تعد هناك حاجة الى تكرار وصفها ، فصار يصف في رحلة العودة ما فاتته في رحلة الذهاب ، أو ما استجد فيها ، مع بعض الاختصار .

قال في وصف بعض معالم رحلة العودة :

وبعد ما ملنا الى الرجوع	للأهل قبل آخر الأسبوع
هب علينا عاصف الشمال	فلم نجد وجهها للارتحال

ثم توجهنا إلى البلاد بخير حال مقتضى المراد

وكان الوصول إلى البصرة في :

في ضحوه الخميس منتهى رجب عدنا إلى المكان إذ لنا الأرب

به انتهت رحلتنا الميمونة بطالع السعد أنت مقرونة

سميتها (بنزهة الجليس) حيث بدت بديعة التأسيس

ولابد في ختام (قصيدة الرحلة) من تقاليد (أدب الرحلات في ذلك العصر) من شكر الله والحمد له ، على سلامة العودة والتوفيق لما تمكنوا منه ، وما غنموا فيه من تجارة ومنتعة أو غنائم أو هدايا ، فيسير الشاعر البصري على تقليد (أدب الرحلات) فتختتم الرحلة بشعر الثناء والشكر والاستغفار والدعاء ، على ما أنعم الله عليهم في أثني عشر بيتاً فيها عرفان وشكر وثناء ، قال في بعضها :

وبعد ذا استغفر الله الذي لم نر غير عفو من منقذ

يا مالك الملك ويا رباه يا سامع العبد إذا دعاه

أغث عبيداً خاف ما جناه إذ لم يخالف لحظة هواه

والطف بنا في كل ما تقدر وعافنا من كل أمر يحذر

واعف عن الأباء والجيران وعم بالعفو ذوي الاحسان

وهكذا ينهي الشاعر هذه الرحلة الممتعة حاولنا فيها أن نقف على أطراف ما فيها والطف مشاهداً ، مع تمثله هذه الرحلة من العلاقة الوشيقة التي كانت معقودة بين أبناء الخليج العربي وقوة الأواصر ودوام الصلة ، ابتداءً من

البصرة حتى أقاصي الخليج ، مما دل على رابطة قومية منذ أقدم العصور.

هوامش البحث ومصادره

- (١) ينظر عن تلك الرحلات وازمانها : (ادب الرحلات - احمد ابو سعد) دار الشرق الجديد - مط الارشاد - بغداد ١٩٦١ ص ١٧-٢٦
- (٢) ينظر عن نشاط العرب والمسلمين في مجال الرحلات في هذه المرحلة : (أدب الرحلات عند العرب في الشرق) علي محسن مال الله - مط الارشاد - بغداد ١٩٧٨ كما حفلت كتب التاريخ والادب بنشاطهم وتحدثت عن رحلاتهم ،
- (٣) انظر : ديوان عبد الجليل البصري - المط السلفية - بمصر ١٣٨٦ هـ - ص ٣٧
- (٤) انظر مقدمة ديوانه
- (٥) انظر ترجمته في مقدمة ديوانه بقلم الناشر - وفي (الدر المنثور في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر - علي علاء الدين الالوسي - تحقيق جمال الدين الالوسي - د. عبد الله الجبوري ص ١٥١-١٥٢ ، وفي (الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر - ابراهيم الوائلي ط ٢ ص ٢١٠-٢١٤ ، وفي تاريخ الادب العربي في العراق - عباس العزاوي ٢٣٥/٢
- (٦) انظر - ديوانه - ص ٧٥-٨٩
- (٧) الديوان ص ٥٤
- (٨) المصدر السابق ص:ي
- (٩) المصدر نفسه ص ٦٦-٦٩
- (١٠) انظر - ديوانه - ص ١
- (١١) وهو صاحب كتاب (مطالع السعود) المشهور
- (١٢) انظر - ديوان السيد عبد الجليل البصري - ص ٩٠-١٠٨
- (١٣) المصدر السابق ص ٣٧
- (١٤) انظر : الرحلة كاملة في ديوان الشاعر عبد الجليل البصري ص ٣٧-٤٦